أفكار للمناقشة

طاقة الحياة أم إرادة البقاء ؟!

بقلم عبد الله القصيمي

القلم الذي نحتاج اليه هو الذي يثيرنا ويتعبنا ، وليس الذي يتحول الى هتاف فى الاسواق والى تشجيع متكرر للانفعالات الحانقة الضاربة فى الفراغ كما تصنع اقلام كثيرة .

لا يحتاج القارىء العربي الى ان تثار مشاعره فحسب ..بل هو محتاج الى اكثر من ذلك ... محتاج الى تعقيل هذه المشاعر والى تشييد خزانات ضخمة لها لتحفظها من التبخروالتسرب والفيضان فى شكل سباب وادعاء وصياح وتفاؤل بليد يصنعه العجز واليأس من مجاراة الاقوياء ...

بعض القراءات تستنفد طاقة الانفعالات وتحولها الى تلال من الرماد ... كثير من الكتاب يأكلون قراءهم ... للكاتب الرديء قدرة هائلة على تشتيت تجمعات الحياة فى قارئه !

افضل ما يجب على كتابنا اليوم ان يخرجوا بفكرنا عن الراحةوالاستقرار الى مخاطر التعب والقلق ـ ان يثيروا اشواقه الى المجهول والى الاسفار البعيدة ، ويعلموه القفز فوق الحواجز وعض اللجم ، ويشككوه فى قيمة الاعجاب بالنفس والوقوف عندها ..

لقد آن لوعينا ان يملى الاقامة الدائمة فى مكان واحد ...انه من غير تحرك زماني لا حياة ، ومن غير تحرك فكري لا حضارة .. استراحة الفكر افة تتصيد الهاربين من التعامل مع الاحداث .. واذا استراح فكر امة انتهى تأثيرها فى التاريخ.

الفكر كائن يعيش بالاحتمال : فهو ينمو بالارتحال والمغامرةويضمر بالوقوف والخوف ..

الشعوب العظيمة فاسقة الافكار متدينة الافعال ، والشعوب المتخلفة فاسقة الافعال متدينة الافكار . .

هذا مقال بعنوان «طاقة الحياة ام ارادة البقاء» قدرت انه قد يطلق فينا قلقا فكريا ، وقلق الفكر هو دائما الالم الذي يبشر بميلاد شيء ما ..

نحن الان نعاني قلقا انفعاليا خطيرا ، ولكننا لا نعاني مثله فى تفكيرنا ... واذا لم تتناسب الانطلاقات الفكرية والعملية لمجتمع من المجتمعات مع انطلاقاته العاطفية اصبح كالجيش الذي يفجر اسلحته فى معسكراته ولا يصوبها الى الاهداف الخارجية !

يقدم البشر الى الحياة يحملون كل امكانياتهم الزمنية ، فيصوغون وجودهم وظروفهم او يتعاملون معها على نحو ما ... ولكنهم لا يتساوون فى قدرتهم ـ لا يتساوون شعوبا ولا افرادا ... واحيانا يكون التفاوت ظاهرة مذهلة ...

لماذا يصنع الناس الحياة ويصرون عليها ويصعدون بها .. لماذا لا يصنعون الموت او يتوقفون عن عمل اي شيء ؟ ثم لماذا يتفاوتون فيما يفعلون ؟

لقد اصبح لهم جواب تقليدي يقول : انهم يفعلون ذلك لان ارادة البقاء تجعلهم يفعلون .

ولكن لماذا يريدون البقاء ؟ وهل تتسبب الارادة عن الارادة ؟ او هل يمكن ان تكون الارادة هي السبب المستغني عن السبب ؟ ولماذا يريدون البقاء ولا يريدون الفناء مع ان البقاء خطر واذلال وخوف وارهاق ، والفناء نجاة وحرية واستقرار ؟

اننا نريد السكون والحركة والراحة والتعب والوحدة والاجتماع والنوم واليقظة والاقامة والسفر والنور والظلام معا كذلك كان يجب ان نريد الفناء كما نريد البقاء.

الارادة شيء فيه معنى القصد والتفسير .. نحن نريد الشيء لاننا نحتاج اليه ولانه جزء منا او لانه فكرة من فكرنا ... ولا نريد اي شيء اية ارادة ! واذن لماذا نريد البقاء وهو لا يمكن ان يكون احتياجا من احتياجاتنا لان البقاء يفتح الاحتياجات ولكنه لا يغطيها .. نحن ننطلق منه لا اليه ...

ان المنتحر والجبان الهارب من المعركة يتصرفان كلاهما بقانون واحد وارادة واحدة . والاختلاف فى الخط والاسلوب ...

**

لماذا يعمل النبات والحيوان والاجنة والاطفال ـ لماذا يعملون الحياة ويتجهون كلهم بها اتجاها واحدا صاعدا ـ بل لماذا تصنع الجمادات وجميع الكائنات غير الحية وجودها ونشاطها وتطور نفسها ؟ ليست ارادة البقاء هي التي تجعلها تفعل ذلك ...

والانسان طور اعلى من اطوار هذا الوجود ، فيه كل قوانينه وطبائعه ... والفرق ليس الا فى الدرجة ..

ما هو القانون العام الذي يسوق الانسان وكل شيء الى ان يوجد ويحيا ويعمل ويقاوم الفناء ؟

ان الوجود كله ـ وفيه الانسان ـ انما يعمل ويكون بالطاقة وحدها .. فالانسان ـ ومعه الوجود الحي اجمع ـ يعمل بطاقة الوجود وطاقة الحياة معا ، والكون الجمادي يعمل بطاقة الوجود فقط ...

ان الشمس مثلا تعمل كل نشاطاتها بالطاقة ، والانسان يعمل كل نشاطاته بالطاقة ايضا .. وكما تهب الشمس الحرارة والضوء بقانون الطاقة كذلك يهب الانسان اعماله الفكرية والمادية والاخلاقية بالطاقة ـ لا بالارادة ولا باي شيء آخر ...

ومن المحتوم ان نتصور افكارنا ومثلنا ورغباتنا ومذاهبنا وعلومنا هي التي تبدع نشاطنا ... وهذا تصور معقول ومحتوم ، غير ان للحقيقة تفسيرا آخر .

اذا قيل : ان مذاهبنا واخلاقنا ومعارفنا وتربيتنا وارادتنا هي التي تصوغ نشاطنا كان علينا ان نسأل : ولكن ما الذي يصنع تلك المذاهب والمعارف والاخلاق والرغبات ، وما الذي يجعلنا نصمم على الاستجابة لها ونستطيع تنفيذها ؟

جميع ما نفعله هو من عمل الطاقة . فنحن نفكر ونريد ونشرع ونشعر ونكون اخلاقيين لان فينا طاقة تصنع ذلك، وهي تصنعه حتى ولو حرم عليها صنعه ..

كان الانسان خاما انسانيا يضطرب في مناجم التاريخ لا يعرف نفسه ولا يعرفه احد .. فمن هو المارد العظيم الذي جعله يتسلق الفراغ الرهيب ليملأه بوجوده الكبير الحديث؟

لقد وجد اخيرا لنفسه تفسيرا اطمأن اليه .. قال : انه هو التطور .. ولكن التطور حركة ، فمن صاحبها ؟ هو ظاهرة من ورائها قوة تصنعها .. والتطور في جميع صوره لا يعني اكثر من نشاط الطاقة ..

فالحديث عن التطور مثل الحديث عن العمل لا يقصد به الا انه قوة مخلوقة لا خالقة .. ولهذا فانه لا يجيء في درجة واحدة ، وانما يجيء متفاوتا لتفاوت الطاقات التي تحركه ...

والقول بالطاقة يحل مشكلة التفاوت في عمليات تطور الناس وتطور الاشياء . اما القول بالتطور فانه يؤكد هذه المشكلة .. فالاشياء والناس يجب أن يجيئوا متساوين اذا كان التطور هو الذي يصنعهم . اما اذا كانوا يصنعون بالطاقة فكيف يتساوون ما لم تتساو طاقاتهم ؟

ان المعذبين الراكعين على جبين الارض يشقون الصخور ويقبلون التراب ويواجهون الشمس والصقيع ويصرون على البقاء وعلى المضي في الطريق الطويل لا يفعلون الا بالقانون الذي تنمو به النبتة الضعيفة في مجرى الفيضان . انها لا بد ان تنمو لانها حياة .

لماذا اكتب ؟

يقال اني افعل لاني اريد تصدير نفسي ولماذا اريد ان اصدر نفسي ؟

ويقال ايضا اني اكتب لاني اطلب مكسبا ما ..

ولكني قد اكتب حيث اعرض نفسي للخطر لا للمكسب وحيث لا فائدة ترجى ... ولماذا يصرف العلماء والباحثون والمكتشفون والمخترعون جميع حياتهم واحتمالات سعادتهم في اعمالهم المبيدة ؟

يقال انهم يفعلون ذلك لانهم يعبرون عن انفسهم او يطلبون لها المجد والشهرة او يريدون نفع الانسانية او نفع امتهم ، او لان في طبيعتهم حب المعرفة ..

ولكن هذه كلها تفسيرات ظاهرية جزئية لا يمكن ان تكون تفسيرا كليا حقيقيا لهذه التضحية البشرية الهائلة ..

ان الانسان يصنع الحضارة ويشيد الاعمال الكبرى الخالدة ويسير في الطريق الطويل الوعر ، وينطلق رجال الاعمال يقيمون المنشآت ويجمعون الثروات التي تمزق اعصابهم وحياتهم والتي لا يمكن ان تكون احتياجا من احتياجاتهم ..

وان الذين لا يجدون ما يعملون خارج انفسهم يرتدون الى داخلها ينشئون فيها اعمالهم .. وليست الانفعالات الرديئة وتعذيب الذات بالاوهام والاماني والاحتراق الداخلي الا تجارب لهذه الاعمال داخل الذات .. وكثير من الحروب والخصومات القديمة والحديثة ليست الا طاقة فائضة لم يمكن تصريفها ..

الناس يعملون لان فيهم طاقة ... انهم ينطلقون في اعمالهم كما تنطلق الانهار والرياح والشهب وانهم يتعالون فيما يصنعون كما تتعالى فروع الاشجار وكما يتعالى السحاب الى السماء ..

ليس لشيء من هذا تعليل غير طاقة الحياة وطاقة الوجود ، وعمل الحياة . وكذا عمل الوجود كله لا يعلل بغير ذاته . فسبب الحياة في الحياة ، وسبب الوجود هو الوجود ...

يفسر العلماء العلاقات الجنسية فيقولون انها هي التعبير الاعلى عن ارادة الابقاء على النوع .

ولكن هل هذا صحيح ؟ الا يحتمل ان تكون هي المظهر الفريد العنيف لطاقة الحياة ؟

ارادة من تلك الارادة النبيلة الشاملة التي تصنع هذه العلاقات بين الجنسين لهذا الغرض ؟

اعداد « الآداب » الممتازة

اطلبوا الاعداد الممتازة التي اصدرتها « الآداب » في اعوامها الماضية عن « القصة » و « الشعر » و « الفنون » و « المسرح »

اهي ارادة الحياة ؟ وهل الحياة شيء غير الاحياء ؟
ام هي ارادة الجنسين من البشر والحيوانات والحشرات والنباتات ؟

ان كل هؤلاء ــ الا القليل جدا من البشر ــ لا يدرون شيئا عن هذه الارادة ...

ام هي ارادة اجنبية تتخذ من هذه العملية الشائقة مشهدا مسليا لها ؟

ان الذكورة تلتقي بالانوثة كما يلتقي النهر العاشق بالحقول المنبسطة .. والناس من اجل هذا لا يعملون ليحققوا السعادة التي لا يتخيلون ، وانما يعملون من اجل العمل . ولو انهم بلغوا السعادة ولم يجدوا ما يعملون لراحوا يدمرون سعادتهم ليعودوا مرة اخرى يعملون لتحصيلها . فالسعادة ليست محصولا بل فكرة تتحول الى محاولة ... السعادة هي العمل للسعادة حينما تكون مفقودة والعمل ضدها لو كانت موجودة ! والاطفال اذا لم يجدوا ما ينفقون فيه فضل طاقتهم ذهبوا يقيمون البيوت واللعب من الطين والورق ثم كروا عليها يهدمونها ليشيدوها من جديد . وحركة الكون بعضه حول بعض وحول نفسه تعبر عن فيض هذه الطاقة اي تعبير ــ تعبيرا لا يعني شيئا لانه دوران حول الذات . ودورة الارض حول نفسها حركة من هذه الحركات . وقد يقنعنا غرورنا انها تفعل ذلك من اجل ان تمر بنا على الشمس لنأخذ منها الحياة والدفء.

ان الوجود حركة لانه طاقة لا لانه مذهب او فكر او فضيلة ...

والمادة ليست الا طاقة مخزونة .

نحن نفكر ونتعلم ونضع قواعد التربية والسلوك لاننا طاقات ، ولا نكون طاقات لاننا مفكرون ومتعلمون وعارفون بالقضايا الاخلاقية والتهذيبية ..

كلنا نعمل الحياة لاننا لا نستطيع ان نكف عن العمل ... اننا نعمل بالاضطرار ــ بالاندفاع الذاتي . والحياة غير محتاجة الى حوافز ترغيب او ترهيب لتعمل ، لانها تعمل بالطاقة لا بالحافز ، وهي التي تعمل حوافزها ، وهي لا تعملها لانها لا تنشط الا بها بل لان عملها نوع من نشاط طاقتها . والحافز لا يوجد العمل وانما يوزعه ..

ولو فرضت عليها تعاليم تأمرها بالراحة وتحرم عليها العمل وتضمن لها كل احتياجاتها اذا هي امرت الاتها بالتوقف عن الدوران ، لكان محتوما ان تعصى .. فالعمل ضرورة اكثر من كونه واجبا !

والحياة التي لا تكون عظيمة فيعطائها ليس معنى عجزها انها لم تجد الحوافز والمنشطات التعليمية ، بل معناه عجز طاقتها ... والحياة العاجزة في طاقتها لا يمكن ان تخلق منها الاوامر والتعاليم المحفزة عملا عظيما . فالتعاليم لا تحول التراب الى حديد ، والحديد تبقى فيه طاقة الحديد وان كان ملقى فى التراب .. نعم ان التعاليم المحفزة تحرك ما فى الحياة من طاقة وتوجهها ولكنها لا تعطيها ما ليس فيها ..

وهذا التراث الضخم من الثقافات والاخلاق ليس هو الذي يعطي ايدينا وافكارنا الرغبة فى العمل ولا القدرة والتصميم عليه ...

لقد خلقت حياتنا ثقافاتنا وجميع تعاليمنا لان الحياة خالقة ثم صار دور الثقافة والتعاليم ان تنظم لا ان تخلق . فالحياة تخلق والتعليم ينظم . ولهذا لم يكن متوقعا ان نتساوى في عطائنا . فالحياة القوية في طاقتها تعطى افكارا وثقافات وتعاليم واخلاقا قوية . اما الضعيفة فلا تستطيع اعطاء ذلك ، وكذلك تختلف الحياتان ايضا فى القدرة على تمثيل تلك المعطيات ..

**

يختلف نشاط المادة ونشاط الحياة فى جميع مظاهرهما اختلافا يساوي الفرق بين اصغر ذرة واكبر شمس ، وبين حياة الخلية الواحدة وحياة الانسان ، ولا تفسير لهذا الاختلاف غير التفاوت فى مقادير الطاقة ..

واذا كان مسلما ان الحياة وكل شيء يعمل بالطاقة ، وان الطاقة متفاوتة المقادير فى الكائنات كلها ، كان معنى هذا ان البشر افرادا وجماعات لا بد ان يتفاوتوا ..

ان الآحاد الجمادية والحيوانية من فصيلة واحدة مختلفة فى نشاطاتها وصفاتها الذاتية، والاختلاف فى ذلك بين الفصائل المختلفة اعظم .. فحجران وشجرتان وحصانان وقذيفتان لا يتفقان فى امكانياتهما ..

والفروق فى الطاقات هي التي تصنع الفروق بين فصائل الخيول وسلالات الكلاب وفسائل النباتات وانواع الجمادات فيما تستطيع ان تعطي من نشاط ومزايا ..

وهذه الفروق لا يمكن ازالتها بايجاد ظروف متساوية تحيا فيها السلالتان المختلفتان والوحدتان المختلفتان ، فهي ليست كحلاقة الشعر . لان هذه الفروق قد اوجدتها عمليات تاريخية طويلة وعميقة . فزوالها يحتاج الى مثل هذه العمليات فى طولها وعمقها ..

والبشر بتجاربهم الوليدة المحدودة قد لجأوا الى عمليات التهجين والتزويج والاستبدال القائم على الانتخاب الصناعي ليظفروا بسلالات ومزايا اقوى وافضل . وهذه الاختلافات بين شتائل الكون الجمادي والحيواني وبين آحاد هذه الشتائل ناشئة عن اختلاف فى الطاقة ..

وهنا يتقدم سؤال خطير : هو وهل الانسان مختلف في طاقات سلالاته وآحاده ...؟! هل كل شعب مثل اي شعب وكل فرد مثل اي فرد فى مزاياه التطورية ، وهل الفروق فى الظروف فقط ، بمعنى ان اضعف شعب واضعف انسان لو اعطيا الظروف التي يحياها اقوى شعب واقوى انسان لتساوى الشعبان والفردان ؟

ومع هذا فهنا سؤال : هو من الذي يعطي الظروف ؟. اليس الناس هم الذين يصنعونها لانفسهم ، فلماذا يصنع قوم ظروفا جيدة ويعجز آخرون عن صنع مثلها ؟

هل نستطيع ان نختار انه ليس بين البشر فروق ، وهل يمكن الذهاب الى هذا فى الآحاد لنزعم مثلا ان طاقة اضعف انسان تساوي طاقة اعظم عبقري وان الفروق بينهما ليست

الا فى الظروف ؟

وهل يمكن ان تسلم الفروق فى طاقات الآحاد وتنكر فى طاقات السلالات ؟ وهل يمكن ان توجد الفروق التاريخية فى جميع الموجودات النباتية والحيوانية والجمادية التي انحدر منها الانسان ثم لا توجد فى الانسان نفسه ؟

المفروض دائما ان الكائنات كلما ترقت تعاظمت الفروق بين آحادها وسلالاتها ..

اما ان كان ممكنا ان نختار القول بوجود الفروق بين سلالات الانسان وآحاده فماذا يمكن ان تكون النتائج ؟

لو كان هذا صحيحا لكان معناه ان الفروق في التقدم والتأخر وفى الخصائص الحضارية ستبقى دائما موجودة بين الاقوام ذوي السلالات المختلفة ، وان محاولة ايجاد ظروف متساوية لن تزيل هذه الفروق الا اذا استطاع العلم فى المستقبل ان يتحكم فى خلق الخصائص التاريخية وتطويرها تطويرا صناعيا .

اذا وضعنا شعبا او فردا فى ظروف ملائمة ، كان ممكنا ان تستثمر هذه الظروف كل امكانياته وان تغيره ، ولكنها لا تستطيع ان تهبه امكانيات اضافية ليست فيه . فاذا تساوى هو والمتفوق فى ظروفهما تغيرا معا ولكنهما مع هذا يظلان مختلفين بقدر اختلاف مزاياهما التطورية ..

ويكون معنى هذا ان فرض ثقافات الاقوى وافكاره وحضاراته ومزاياه النفسية والاخلاقية على الاضعف لن تجعله مثله .. انها تغيره وتصوغه احسن ، غير انها لا تنقله الى الطور الاعلى ...

وكما يعجز الضعيف عن اخذ كل ما عند القوي وعن مساواته فانه ايضا يعجز عن صنع حضارة فكرية او فنية متفوقة . فهو متخلف فى اخذه وفى عطائه .. اني ارهب القول بهذا واستعظمه والعنه وارجو الا يكون صحيحا ،ولكني اجرؤ على ان اطرحه موضوعا يجب ان يناقش ويدرس . ولست هنا اقرر بل اسأل ، فعفوكم يا من قد تتهمون !

والذين يخشون على انفسهم وعلى قيمهم الثابتة من طرح الاراء المخالفة يعطون حجة لمن يزعمون ان البشر مختلفون فى طاقاتهم وفى مزاياهم النفسية والفكرية وفي مزاجهم الحضاري ..

والناس لا يحترمون انفسهم ولا يطورونها بالخوف عليها من جعلها موضوعا علميا . والاقوياء لا يضعفون اذا تحدثوا عن احتمالات ضعفهم ، كما ان الضعفاء لن يصيروا اقوياء اذا كفوا عن مثل هذا الحديث . .

ولن يتحول الارنب اسدا ولا الاسد ارنبا لو صور كل منهما على جبهة الاخر !

اني اومن بان خير الافكار هي الافكار التي تشتم في الاسواق ! وعلينا مع هذا ان نطمئن ، فلو صحت هذه القضية لكان من المعلوم ان الشعوب العربية هي من السلالات الممتازة . وهذا شيء لا جدال فيه . وقد ساهم العرب كعمالقة فى بناء حضارة الانسان .

القاهرة — **عبدالله علي القصيمي**

نحن ندلك على أحسن الكتب

هل اشتريت نسختك من هذه الكتب لتقرأها او لتهديها لاولادك او لاخوانك كأحسن ما تكون الهدية ؟ اذا كنت لم تشتر للآن فسارع قبل نفاذ النسخ

تاريخ الامة العربيه

اصدق رواية لتاريخ أمتك وبلادك صدر فى ثلاثة اجزاء

١ ـ عصر الانبثاق

تاريخ العرب قبل الاسلام

٢ ـ عصر الانطلاق

القسم الاول : سيرة الرسول العربي وظهور الاسلام

٣ ـ عصر الانطلاق

القسم الثاني: سيرة الخلفاء الراشدين

ابو بكر ـ عمر ـ عثمان ـ علي

بقلم الاديب الكبير الدكتور
محمد اسعد طلس

*

رواية ابن حامد أو

سقوط غرناطة

صفحة رائعة من صفحات النضال العربي المشرق فى الاندلس ، آخر ايام ملوك بني الاحمر

بقلم الشاعر الخالد فوزي المعلوف

*

مذكرات جريح

كتاب كتب كعزاء لكل المعذبين فى الارض
بقلم الشاعر الكبير بولس سلامة

منشورات دار مكتبة الاندلس ـ بيروت